اِستهلال

مِما قاله أخي **حَسَن مُطلَك** عن قَريتنا:

• لقد مَلَكَ عليّ حُب قريتي شغاف القلب، وأنا.. أهرُب منها لفرط حُبي لها.

• ذكرياتي كثيرة عنكِ أيتها القرية. أيام الطفولة البريئة كانت مُترعة بالأحداث وبخيالات جميلة، أيام كنت أركض وراء الفراشات وأُطارِد جموع الكلاب وأملأ عَرَبَتي بالتراب وأفرغها. كنت لا أخشى شيئاً أكثر مما أخشى الطائرات.

• ليل القرية هادئ، مُثقَّب بأخبار الأرواح والحيوانات الغريبة والجثث الغريقة كل يوم، والحذر من قفز عقرب الساعة وضجيج الضفادع، والخوف من مَنظَر الجواريب المنشورة وسط الغرفة.

• في القرية: الجيران هم العائلة نفسها بالوراثة، أو بتبادل أواني حَساء الخُبّاز.

• القرية؛ مأوى الوَجَع الكبير، شكلها القديم الهادئ، أشجارها المُعادِية. أشجار مُعَيَّنَة في مكان مُعَيَّن. سَواقٍ محفوفة بجذوع.

• تناسيتُ أني وريث التشتُّت والتَعب القروي، وتناسيتُ أني حصانٌ بسرجٍ صغير، وناصَفتُ امرأة؛ الملحَ والطاولة، وثالَثتها الحِبر والأسئلة.

• في لحظات الحاجة إلى الأمن، كنت أحمِل في داخلي صورة لبيتي القروي أينما ذهبت.

• القرية أفضل من المدينة؛ لأنها لا تَقطع أحلامك، وتُتيح لك قدرة على التأمّل، والعزلة.

• طيورنا أنقى من طيور المُدن.. السماء عندنا دانِية وناصِعة ورحيمة.

• بفضل الريف، تعرفتُ على مناطق واسعة، لأن العلاقات أوسع. هناك الطبيعة والفطرة والفضول وأشياء كثيرة لا تعرفها المدينة. الريف هو ينبوع الخيال.. إنه يعُطي فرصة لي، لا لكي أتخيل فحسب، بل لأتابع هذا الخيال حتى يتجسد.

• رُبما.. أظُن أن المبدعين هم أهل القرى، أو الكُتاب القرويون المُتمدّنون... القرويون أعرَف بقراهم من أهل المدن، وإن غطسوا في زحام المدن، فهم أدق تعبيراً من غيرهم عن المدينة.

• أنا مَغمور وابن مَغمور وابن قرية مَغمورة.. وإلا فمَن يدلني على قريتي في الخريطة؟ أنتم لا تعرفون قريتي.

• جلستُ على بِساط من الصوف، من تلك التي يُعِدّها القرويون خصيصاً لضيوفهم، أما هم فيفترشون الأرض والحصران القديمة.

• لكل واحد من القرويين مَنطِقه.. لا أدري هل لهم مَنطِق ما فِعلاً؟ أُناس.. يهوون إلى الأعماق.. يهوون، طيبون أمام الطوفان الثاني. أسمع صرخات غرقهم عن بعد، أسمعهم يعشقون ويهمسون لنسائهم في كوابيس النهاية، يقاومون بعناد، بلا جدوى.. مدافعين عن تاريخهم وجذور طفولتهم المالحة، عن مشاريع الدفن في قطع الأراضي الموروثة، عن السهل قرب الجبل. يتفككون أكثر عند حلول المساء، يسألون \ بعضهم عن بعض.. ويَكِيدُون، ينصبون الفِخاخ.

• كل فرد عندنا حضارة قائمة بذاتها، كل فرد أُسطورة.

• وتَستَيقِظ القرية ضاحِكَة ذات صَباح غريب. تَضحَك البيوت والدرُوب والخَبّازات، والذين سَحَبوا بَقراتهم من النوم بعدما قَضَت الليل تُحَرِّك ذيولها لطَرد البَعوض. كل شيء يَضحَك.. حتى الكلاب ونباتات الشوك، والأعشاب الميتة في الروث كَلِحية مُراهِق، والرَجُل الغريب الذي نام خجلاً بِفَضل تِكرار الكَرَم، وسأل: ما بِكُم؟ ما الذي حَصَل؟ ما الذي يُضحِكُكُم؟ ثم فَرَكَ كَفه استعداداً للفطور. لكنهم غارِقون في الضَحك. وهكذا.. أهمَلَ رأسه ليُكمِل النشيد الناقِص. ضَحِك. ضَحِك. ضَحِك...

• اللعنة على تلك اللحظة التي فرَّقَتني عنكِ أيتها القرية، اللحظة التي علَّمَتني بصخب المدينة وزعيقها الدائم، لأنني خُلِقتُ في الأصل.. لصَرير المِحراث.

• عُدتُ إلى القرية لأرتاح بَعدَ تجوال الطُموح المُتعدِّد، عُدتُ بعد التعب لأُدافِع عن مساحة من الأرض كافية لاحتواء جسدي.

• أذكُر أنني عندما عُدتُ إلى أرض القرية، بَعد محاولة يائسة لقياس محيط الأرض بالخطوات. قلت: إنها بقعة مناسبة للموت، سأضع رأسي وأستريح. ربما بقي لي بعض الوقت لكي أُحاسِب نفسي.

• لا شيء.. سوى تلك القرية. لا شيء غير الخوف، غير اقتراب الموت.

***

عِناد وَرديّ

قرَّر أبي ذبح أحَب عِجولنا إلى قلب أُمي، بمناسبة زواج أخي الكبير. حاولنا جميعاً ثنيه عن ذلك بكل السبل، ولم نفلح. لم يستجب لتوسلاتنا ولا لدموع أمي، التي عرضَت عليه ذبح كل أبقار الزريبة وعجولها إلا (وَردان)، لكنه أصر قائلاً إن أمر الاختيار قد جاءه في المنام، ولا بد أن الرب له إرادة في ذلك، وذكَّرها بأن سيدنا النبي إبراهيم قد رأى في المنام أن يَذبح ابنه إسماعيل، فاستَجابا، وتلا عليها من القرآن: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. وعقَّبَ: وأنتِ تعترضين على ذبح عِجل تافه يا امرأة! فردَّت عليه بثقة: لا تقُل عنه تافهاً، ثم إن رؤيا الأنبياء في المنام وحي، وأنت لستَ نبياً، وورِدان هو عِجلي أنا وليس ابنك! كان الحوار بينهما مُحتدِماً وعبثياً، لأننا نعرف جميعاً أن أبي إذا قرّر أمراً فَعله، حتى وإن كان هَدّ البيت على رؤوسنا. قال: وماذا لو كنتُ أريد ذبح أحد أبنائي؟ صمتت أمي قليلاً، ثم قالت: عندها سأُفكر.

كدنا نَنفجر بالضحك لولا أن الموقف كان بالغ الحساسية، وخاصة لأمي. انسحبَ أخي الكبير ليُفرِج عن ضحكته بعيداً، بحجة: «أنا لا، فعُرسي غداً»، وتبعته شقيقاتي الأربع، بحجة: «نحن بنات»، وبقيتُ أنا، أصغرهم. كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، وأُحب حكايات أبي، ومنها قصص الأنبياء التي من بينها قصة النبي إبراهيم، فتقدمتُ إليه، وقلت: «اِذبحني أنا يا أبي». فدفعتني أُمي زاجِرة: اِخرَس أنت، فحتى ليس فيك أيّ لحم، يا صُوص الدجاج».

نظر إليّ أبي بحُب يفوق حبي له. ضَمني إليه بقوة وأجلَسني بجواره، ثم

راح يُقنع أمي بنبرة أهدأ: اسمعي يا امرأة، هذا هو العجل الوحيد الذي فيه لحم، على الرغم من أنه أصغرهم، ربما لأنكِ تُراعيه أكثر من غيره. وللحظة، ظننتُ بأنه يقصدني، لولا استطراده في الكلام: البقرات حوامل ولا يجوز ذبحها، ولا يمكن أن نقدم لضيوفنا مجرد عِظام. هذا عرس ابنكِ البِكر، ويستحق الاحتفال والاحتفاء والتضحية، فعُرسه يعني أننا نجحنا بإتمام رعاية أبنائنا، وبدأنا أولى خطوات إيصالهم إلى بر أمان حياتهم، وسوف نتذكَّر يوم عرسه طوال حياتنا، كتذكُّرنا ليوم عرسنا وليوم ولادته.

صمتَ قليلاً حين لاحظ أنها قد هدأت، وربَّتَ على كتفها حين رأى الدمع ينسكب من عينيها، وأضاف: ثم إنكِ بحاجة إلى قِربة جديدة، بَدل العتيقة التي أهدتها لكِ والدتك، وبَدل استعارتك لقربة جارتك بين يوم وآخر، وحسب خبرتي بالحَلال (حيوانات البيت)، فإن هذا العِجل أصَحّها، وجلده أمتن وأنسب وأكبر من جلود الماعز والغنم.

يبدو أن أُمي قد اقتنعَت.. أو استسلَمت. نَشجَت بصوت مسموع قائلة: «يا عيني يا وردان». ثم نهضَت مُتجهة صوب الزريبة، وتبِعتها أنا وحدي. احتضنَت العجل وانتحَبَت. تضمّه إلى صدرها، تمسح على فروته، تُقبله، تُكلّمه باكية، بحنان ووجع جارفين، وتُعيد على مسامعه بعض الأغاني التي ألَّفَتها له:

وَردان يـا وَردانـي ولِيف أفراحـي وأحزاني
طيـب وحليـو مدلـل يلعـب كالطفـل الفنـانِ
أعطيـكَ أحسـن ثَيّلاتـي وتَشـرب بأنظـف أوانـي
تروح الناس وتجي الناس ونبقـى هنـا أنـتَ وآنـي
وَردانـي يـا وَردانـي اِنسـى الدنيا ولا تنسـاني

كنتُ أقف خلفها دون أن تنتبه إليَّ، لكنني غادرت بعد عشر دقائق، ليس لمللٍ أو لحزن على حزنها، وإنما لأنني شعرتُ بالغيرة هذه المرة أكثر من أي مرة أخرى.

لا أحد منا، ولا في القرية، يعرف سر تعلُّق أمي بهذا العِجل -تحديداً- من بين كل البهائم في زريبتنا. لم تعترض يوماً على بيع أو ذبح أحدها، فهي تقول: «لأجل هذا خلقها الله، رِزقاً وخِدمة لنا. ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. الله يعطي والله يأخذ». إلا أن هذا العجل قد شغفها حباً منذ ولادته، وحين نَسخرُ منها قائلين إنه «حُب من أول نظرة»، لا تزعَل من ذلك، بل تؤكده: ما إن وقعَ على الأرض من بطن أمه؛ وقع حُبه في قلبي، وأول نهوضه، تقدَّم إليّ أنا، قبل أُمه، تَشمَّمني، مَد رقبته على كتفي يعانقني فعانقته. كان لونه في البداية وردياً، لهذا أسميته (وردان). وحين يُمازِحنها أخواتي، أحياناً، ويناديها: «يا حاجَّة وردِيّة»، تَبتَسِم.

ووردان هو الحيوان الوحيد الذي جَدَلَت أُمي حَبله بيديها من بقايا ثيابنا القديمة، لذا؛ فهو حَبل ملوّن هكذا، وأنعَم من بقية الحِبال البلاستيكية. وهو الوحيد الذي تُنظفه يومياً، وتسمح له بالتجوال حُراً في الحوش والحديقة، وحتى في الدخول إلى الصالون والمطبخ وغُرف نومنا.

اعتقدنا جميعاً أن الأمر قد تم حسمه، لصالح أبي كالعادة، فلا أحد يجرؤ أن يعصي له أمراً، لكن المفاجأة كانت صادمة، صبيحة اليوم التالي، المُقرّر لعرس أخي، حيث لم نجد وردان في مَربَطه في الزريبة. بحثنا عنه في كل الأركان والزوايا، ولم نجده. اختفى، فاستشاط أبي غضباً.. بل جُنَّ، وهاجَم أمي، يستجوبها ولا تُجيب، لا تنطق. اِكتَفَت بالجلوس أمام باب البيت مُطأطئة الرأس. كان يصرخ عليها بأعلى صوته، بأقسى الكلمات والتهديدات، ورذاذ لعابه يتطاير فوقها: ماذا فعلتِ يا حمقاء؟ أين أخفيتِهِ يا هبلاء؟ إن لم تُخرِجي الحيوان الآن يا حَيوانة سأذبحكِ مكانه. سأسحقُ رأسكِ.

وراح يرفعها من شَعر رأسها بعنف حتى استقامت، وهَمّ بضربها، فاندفعنا جميعاً ودفعناه عنها. وقفنا بينهما، نحمي أمي من عاصفة أبي الهوجاء، فيما لم يكف هو عن الصراخ: «كيف تخالفين لي أمراً يا ناشِز! سأُطَلِّقكِ.. سأُطَلِّقكِ». وصرخات أخواتي المتوسلات تتعالى، فالتَم الجيران والأقارِب من كل الجهات، وجاء بعض الرجال من المقهى القريب وبعض النساء من المَصبَغَة البعيدة، وبعد أن تبيّنوا الأمر، غاب بعضهم وعاد سريعاً يجر أحد عجوله، فاحتشد حوش بيتنا بالناس والعجول، وكل منهم يقول: «خُذ هذا

يا رجل، خُذ هذا هَدية اِذبَحه، هذا أسمَن». ثم أقدَم خالي وعَمي على ذبح عجليهما مباشرة، فانتَهَت المشكلة...

كان ذلك اليوم كأنه أسعد يوم في حياة أُمي. فرِحَت بإنقاذ وردان، واستعادته من زريبة الجارة التي خبأته عندها، وفرِحت بعُرس أخي، واكتشفتُ أن أخواتي لا يقلَّنَّ عنها فَرحاً، فبعد أن سمعتُ الصخب الغريب في غرفتهن المُغلَقة، دخلتُ عليهن، فرأيتهن -لأول مرة في حياتي- يرقُصنَ بابتهاج عارم، ويُغنّين:

هِـيَ وهـاي وهيّـة وانتَصـرَت النسـويّة

هِـيَ وهـاي وهيّـة وعاشَـت الوَرديّـة

بينما كان ذلك اليوم، هو الأسوأ بالنسبة لأبي، حيث تغيّرَ بعده تماماً؛ صار أكثر سَكينة وصمتاً وشُروداً وإنعزالاً.. بل كأنه راح يشيخ بسرعة، وحين جلستُ بجانبه ذات مرة، وحاولتُ مؤانسته وتبادل الأحاديث معه، كما كنا في الماضي، لم أجده راغباً بذلك، فألحَحتُ عليه بالسؤال عَما به، إلى أن نَطَق أخيراً، وهو يُحَدق في الفراغ: الرجلُ كلمة، فإن كُسِرَت كلمته؛ اِنكَسَر.

***

مَجنون قريتنا

لكل قرية في العالم مجنونها، وهذا من مشيئة الخالق في خَلقه، لكن مجنون قريتنا له ميزة فريدة، دُوناً عن كل مجانين الدنيا وعقلائها، عدا كونه الأجمل؛ لأنه عاشق، ولأنه الأشقر الوحيد بيننا، شَعر طويل وعينان خضراوان، يشبه صور المسيح التي يرسمها الأجانب، لذا؛ تسعى الحوامل للقاء به عندما تكوّن أجنتهن، عل أطفالهن يخرجون بشبه منه، يستضفنه على وجبة طعام، يدعونه لاحتساء الشاي، يهدينه بعض ثياب أزواجهن القديمة، يوقفنه في طرقات القرية بحجة السلام عليه، ويختلقن الأحاديث لإطالة الوقوف، وهو وإن كان يسمع جيداً، فإنه لا يستخدم إلا كلمتين فقط من كل اللغات، وهما «نور» ويقصد بها «نعم»، و«نار» وتعني «لا». ونور هو اسم الفتاة التي عشقها وقاده هيامه بها إلى الجنون.

اسمه «أكرَم»، لكن الجميع يناديه بصيغة الدلال التي يناديه بها والده: «كَرّومي». رَبّاه والده بمفرده، بعد أن ماتت أمه وهي تلده، وحين تزوج ثانية، لكي تعينه في رعايته، وجدها تُسيء معاملته، فطلقها وقرر ألا يتزوج أبداً، ويكرّس نفسه للعناية به، فأثر ذلك على عمله وتحركه، لا يستطيع الابتعاد كثيراً عن البيت، فبقي فقيراً، مجرد عامل بسيط عند جاره الثري تاجر الجُلُود، ولأنه كان يصطحب ابنه معه في أغلب الأحيان، تصاحَب الولد مع بنت الجار منذ الطفولة، تعلّق بها، وجد فيها الرفقة والشراكة في اللعب والدراسة والرسم والغناء والرقص والأحلام.. وحتى ما يُمكن اعتباره تعويضاً عن حنان المرأة، الأم. أحبَّته وأحبها أكثر من حب الإنسان لنفسه، ومثل كل القصص التقليدية، التي تتكرر في كل زمان ومكان؛ عندما كبر «كرّومي» وأراد الزواج من عِشق عمره «نور»، رفض والدها الثري تزويجها

من ابن عامل فقير من عماله، وحين تكرر طلب الزواج، طَرد الأب من عمله، ومنع عليهما الدخول إلى بيته مرة أخرى، وعرض عليهما شراء بيتهما الطيني البسيط لضمه إلى بيته، لكنهما رفضا، فرفَع السياج الفاصل بينهما مترين إضافيين، وصار يمنع ابنته من الخروج من البيت إلا بسيارة مُظلّلة برفقة سائق وحارس، لكي لا يراها أو يقترب منها كرّومي، حزن الشابان وصارا شاحبين لقلة تناولهما للطعام وكثرة سكبهما للدموع، بَدَيَا ذابلين مُصفرّين كأنهما مريضان.

ولأن الوالد أصبح بلا عمل، ولأن الفقر هو العائق أمام زواجه بحبيبة عمره، كما اعتقد كرومي، قرر أن يترك دراسته في الجامعة ويكرس كل جهوده لجمع المال بأسرع وقت وبأي شكل كان، فأصبح يغيب عن القرية شهراً بعد آخر، ومع نهاية كل شهر يأتي بجديد، مرّة بسيارة فارهة، وأخرى بشاحنة لنقل المحاصيل، يوظف لسياقتها أحد شباب القرية، ثم طاحونة، ثم جرّافة، ثم رافعة ثم حفّارة آبار، ثم مدبغة ومصبغة جلود؛ أحدث وأكبر من التي يمتلكها جاره، كما جاء بمهندس وعمال قاموا ببناء بيت حديث فخم، وأعلى من بيت جاره، ورغم ذلك فهو حين كان يصعد على سطحه لا يرى حبيبته «نور»... وفي الخلاصة؛ أصبح أغنى من والد نور، خلال خمسة أعوام، ولا أحد يعرف كيف كان يجني كل هذه الأموال، البعض يظن أنه يُتاجر بتهريب السلاح أو المخدرات أو العُملات أو النفط، والبعض يخمن أنه يعمل مع شركات أجنبية، أو يعمل في مهام سرية مع الحكومة أو مع أثرياء البلد، أو في التجسس على البلد. ثمة من يقول إن أحداً رآه على الحدود التركية أو السورية أو الإيرانية أو في موانئ البصرة... لا أحد يعرف، لكن الذي يعرفه الجميع، وهم على يقين منه، هو أن كرومي مشهود له بالذكاء الحاد منذ صغره.

رغم ذلك، حين بعث أباه مرّة أخرى، مع وجهاء القرية، لطلب الزواج، رفض والدها أيضاً، وهذه المرّة رفضاً قاطعاً، مُشككاً بمصدر أموال كرومي، عدا قوله إنه فاشل في الدراسة، وحتى لو عاد إلى الدراسة ونال أو اشترى أعلى الشهادات، فهو سيبقى في نهاية الأمر ابن ذلك العامل البائس الذي كان خادماً عنده، فصُدِم كرومي، كما صُدِمَ أول مرة.

قفزَ إلى خزانته الحديدية، أخرج مسدسه منها، وهمَّ بالتوجه إلى بيت ذلك «السمين العفن» كما قال، وهو يكاد ينفجر من عنف غضبه، «سأقتله»، لولا أن والده أمسَكه، تشبث به، توسل إليه، هَدّأه. ومع ذلك قال: «إن لم أقتله أنا، سأبعث إليه من يقتله.. هذا السمين العفن»، فحذره والده بشدّة، قائلاً: «إن فَعلتَها فسوف أتبرّأ منك إلى الأبد، ولن تكون ابني ولا أنا والدك، هذه ليست أخلاقنا.. هل جُننت!». وهو لا يستطيع أن يرد لأبيه أمراً، لكنه يكاد يُصاب بالجنون فعلاً... وعَقَّب والده: «ثم؛ مَن ذي التي ترضى بقاتل والدها زوجاً! وهذا الرجل عنيد جداً، أنا أعرفه جيداً، منذ أن كنا صغاراً، وقد عملتُ معه قرابة الثلاثين عاماً، فلو عانَد وركبَ رأسه، لن يستطيع أي كائن أن يُثنيه، فاترك الأمر يا ولدي.. إلى أن يقضي الله أمراً». لكن أكرم لا يستطيع ذلك، التفكير بنور، بالنسبة له، كالتنفس تماماً، لو انقطع عنه لدقائق؛ مات اختناقاً.

هيمن عليه الإحباط والعجز، صار لا يخرج من البيت ولا يفعل شيئاً سوى التدخين والتفكير بنور. أهمل أعماله، وراح يخسر أملاكه تباعاً. أهمل نفسه، أهمل المأكل والملبس وصحتيه الجسدية والنفسية، وحتى حين اهتدى، بعد مدة طويلة، إلى إعادة طرح فكرة الهرب معها إلى مكان بعيد، واستطاع أن يجد من يُوصِل إليها عَرضه سِراً، جاءه جوابها بالرفض أيضاً، لأنها من المستحيل أن تتخلى عن والدها أو تعصي له أمراً، ولا سيما أنه أكثر شيخوخة، وهي الوحيدة الآن التي تعتني به، بعد موت أمها وزواج أختها في قرية أخرى...

كانت الأمراض تدب في جسدي الوالدين؛ الغني يزداد سِمنة وتورّماً ولا يستطيع السير إلا على كرسي متحرك، والفقير يزداد نحافة وانحناءً ولا يستطيع السير إلا على عكاز. وأملاكهما تشح بالتدريج، فلا بنت الأول تعرف كيفيّة إدارة أعمال والدها، ولا الثاني بقادِر على إدارة أعمال ولده. انقلبت الشاحنة ومات سائقها، فتُرِكت في الوادي، توقَّفَت الطاحونة لأن الطحين صار يأتي جاهزاً في أكياس، سُرِقت الجرّافة، اِختَفت، ولا أحد يدري أين، تعطَّلَت الرافعة وليس من قِطع غيار لها، فبقيت شاخصة هناك وسط القرية، يأكلها الصدأ وتذرق عليها العصافير مثل تمثال، كما انتهى زمن

حفر الآبار وانتَفَت الحاجة إلى الحفّارة، وتَعفَّنَت الجُلود في مخازن مدبغة ومصبغة الجُلود.

نَصحَ أحدهم كرّومي بأن يلجأ إلى السِحر، فبدد الكثير من الوقت والجهد والمال على السَحَرة والمُشعوذين، دون جدوى، لذا قرر أن يتعلمه بنفسه، فراح يجمع كُتب السِحر من شتى أنحاء العالم ويقرأها، ثم سافر إلى الهند والمغرب وفي مجاهيل أفريقيا ليتدرب هناك ويعود بالمزيد من تلك الكتب والكَراريس، ويحاول تجريب تطبيقها، إلى أن أُصيب بالجنون، يقال بأن فشله في دِقّة تطبيق إحدى الطُرق السحرية هو الذي أفقده عقله... ومن يومها أخذ يهيم على وجهه في حقول ودروب القرية بلا اتجاه ولا هدف، يأكُل ما يَجد أو ما يُمنح له، وينام أينما غلبه النعاس، والأطفال يهرولون خلفه برفقة كلابهم، يرمونه بالحجارة، ويهتفون:

«يا كَرُّومي يا مجنون أوسَخ واحد في هالكون
قلبك فار وعقلك طار وأنت تايِه برّا الدار»

وقد حاول والده حبسه أو ربطه في الدار، لكنه كان قوياً يُحطِّم الأبواب ويقطَع الحبال، فتركه وشأنه، فمنذ أن فقد كرومي عقله أخذ جسمه يتحسن ويمتلئ ويزداد صحة وقوة، حتى قالت الناس: «يا سبحان الله! العِشق مَرَض والعَقل مَرَض». ويستغلونه، أو يستنجدون به، في المهمات الصعبة التي تحتاج إلى قوة، كإزاحة صخرة أو رفع عَمود أو كَسر جذع أو لوي قضيب معدني أو تحميل أكياس المحاصيل أو إسقاط ثور لذبحه، حيث يُمسك بالقرنين بقبضتيه، يلوي الرأس والرقبة، فيسقط الثور أرضاً ويجلس على بطنه. طال شَعر رأسه وشاربيه ولحيته، لا يرتدي سوى دشداشة ومعطف طويل. حافي القدمين صيفاً وشتاءً. إن سألته: «هل أنت بخير؟» قال: «نور»، أي «نعم». يبدو متوحشاً، لكنه، في الحقيقة، طيب ومُسالم، فهو لا يرد حتى على الأطفال الذين يزعجونه بصراخهم والحصى، إلا بصياحه عليهم: «نار، نار»، أي: «لا، لا»، لكنهم يزدادون هياجاً ونشوة وعدوانية، ويُنشِدون:

«نــار ونــور   وأنت هايِم مثل الثور

نــار   نــور   إلا نخبـزك بالتنـور»

أبرز ما يُميزه عن مجانين الدنيا وعقلائها، أنه كان كالحيوانات التي تتنبأ بالكوارث؛ يتنبأ بالمصائب ويُنبه إليها قبل وقوعها. يحمل في جيب معطفه كِسرة مرآة، بحجم الكف، لا تفارقه أبداً، يعكس بها نور الشمس أمامه، فيبدو كأنه يُلاحِق تلك البقعة الضوئية المهتزة دائماً.. كأنه يُطارد فراشَة من نور. أما إذا رفع تلك البقعة الضوئية ووجهها نحو بيت، ودار حوله طوال اليوم، فهذا يعني أن مصيبة ستحدث لذلك البيت غداً، كأن يَنهَدّ سقفه أو يحترق أو يموت فيه أحد أو تُرتَكب فيه جريمة، وإذا ما وجهها نحو دُكان فهذا يعني أنه سيُفلس أو يحترق أو يُسرَق.. وما إلى ذلك.. حتى صارت الناس تتابعه بانتباه.. كجرس إنذار، فهو لم يغفَل ولم يُخطئ قط بالتنبيه إلى وشوك حدوث مصيبة، إلا في مرة واحدة، حين لم يُوجه بقعة ضوء مرآته إلى بيت جاره، تاجر الجلود، والد مَعشوقته نور، قبل يوم من احتراقه، وإنما أمضى اليوم، على غير عادته، منطوياً وحزيناً في ركن بيته، جوار وسادة والده الكهل المريض. فَسَّر البعض ذلك لاحقاً، بأنه تقَصَّد عدم الإنذار، لكي يحترق بيت الذي أحرق قلبه، والبعض الآخر قال إنه ربما لم يشأ أن يُفزِع حبيبته أو أن يكون نذير شؤم لها، أما هي، فقد قالت بعد وقوع الكارثة بأيام، وهي تبكي: «ليته فَعَل، ليته فَعَل.. لا أدري لماذا لم يفعل!».

لقد كان حريقاً هائلاً، مُرعباً، لم تشهد القرية مثله في تاريخها. كانت ألسنة اللهب أعلى من الأشجار والأسوار، والدخان كثيف، بلونيه الأسود والأبيض، ورائحة نفّاذة مُنتِنة، بسبب أن جل أثاث البيت وأشيائه وزينته كانت مصنوعة من الجلود الجافة.

خَرَجت نور بفستان البيت الخفيف، أو ربما هو فستان النوم نفسه، وبقدر ما كان مشهد البيت المحترق مذهلاً للناس، كان مشهدها وهي خارجة مذعورة من وسط النار والدخان أكثر إذهالاً.. وحتى جمالاً. كانت مُبلَّلة بالماء كُليّة، وثوبها ملتصقاً بجسدها الفاتن. كانت تتوسل بالمتجمهرين أن

ينقذوا والدها، فالنار لم تصل إلى غرفته بعد، وقد حاولت هي ولكنها لم تستطع، لضخامة جسده وكرسيه، فأشاروا بأن أفضل من يقوم بهذه المهمة، التي تحتاج إلى قوة وجنون، هو كرومي، فركض بعضهم إلى بيته يستنجد به، لكنه لم يرد عليهم، ولم يرفع حتى رأسه إليهم، فعادوا إليهم وقالوا: «ربما أنتِ الوحيدة القادرة على إقناعه»... وبالفعل؛ شهق عندما سمع صوتها، وشهق عندما رفع رأسه ورآها، وشهق وانسكبت دموعه عندما رأى دمع عينيها وهي تمد إليه كفها لتعينه على النهوض، فهَب وانطلَق راكضاً خلفها، نحو دارها... وأمام أعين الجميع، وبلا أي تردد، دَلَف، سريعاً كالنمر، إلى كُتلة اللهب الهائلة الهائجة والدخان... دَخَل إلى جَحيم كأنه يَدخُل إلى جَنّة.

***

المُعلِّمة المُخيفة والمَطر

حالما تَدخُل إلى قاعة الدرس، تهتف بنا: هيا يا أغبياء!

فينتابنا الرعب؛ لأننا لا ندري ما الذي تريده منا اليوم، أو ما الذي ستفعله بنا. ترتعد قلوبنا وتصبح نبضاتها كطرَقات سجّان على باب زنزانة محكوم بالإعدام، يتوقع التنفيذ في أية لحظة... كانت مُعلِّمة اللغة الإنكليزية بدينة، ساقها أضخم من أضخمنا، وذراعها كمدفع دبابة.. ويل لمن تضربه بها! حين تمُر بين صفوف مقاعدنا، نتجنب أن يحتك شيء من جسمها العملاق بأجسادنا الصغيرة، فنندفع في جلستنا على بعضنا، ويلوذ آخرون بالجدران الآمنة، يلتصقون بها، مهما تكن باردة. تضع شالاً على رأسها، تتدلى من تحته خصلات شَعر ملتوية، تبدو مُرقَّطة بأربعة ألوان: أسود وأبيض ورمادي ولون الحِناء.. لذا؛ كنا نراها كأفاعٍ، نخشى سقوطها فوقنا.

إذا غضِبَت –وهي تبدو غاضبة دائماً– تَسُبّنا بكلمات إنكليزية لا نعرف أغلبها. تحمل في يدها أطول مسطرة خشبية رأيناها في مدرستنا الابتدائية، تضرب بها راحات أكُف الذين لم يُنجِزوا الواجب، أو الذي يُخطئ بالإجابة، الذي تصدُر عنه أية ضجة في الدرس، الذي تسقُط منه المِبراة على الأرضية، الذي يهمس لصاحبه، الذي يلتفت إلى الخلف.. وربما حتى الذي يكح أو يتنفس بصوت عال... كنا نخاف حتى مِن أن تسمَع دقات قلوبنا المضطربة.

اسمها السِت فاتن، ونسميها فيما بيننا، سِراً، السِت فات. نقصد الكلمة الإنكليزية Fat. وذات مرة، كادت أن تفلت منا هذه التسمية أمامها، فتحدث لنا كارثة لا يُمكننا تخيّل عواقبها. حيث أوقفَت بشير، أمام طاولتي بالضبط،

وراحَت تُحقق معه عمَّن كتبَ له الواجب، وهو يُقسم لها مُرتبِكاً: «أنا، والله العظيم يا سِت فات»، فوخزتُ ظهره بأصبعي، فأكمَل: «.. تِن».

لم نرها تبتسم قط. وجهها حزين، حزين بشكل عميق، حزين مثل بيت طينيّ مُهَدَّم. كانت تقف أحياناً شاردة الذهن، تنظر من النافذة إلى الخارج، وخاصة في صباحات الشتاء الماطِرة. إذا هطل المطر؛ تصمت، تترك الكتاب والطباشير والمسطرة والسبورة وتتجه إلى النافذة، تقف هناك بلا حراك إلى أن يتوقف المطر أو يدق جرس نهاية الدرس، فتخرج لمواصلة النظر إليه من شبابيك المَمَر. بعضنا قال إنها تعشق المطر، لكن آخر قال إنه رأى دمعها ينزل كلما تأمَّلت نزول المطر. قال: إنها تمطر أيضاً... وفي كل الأحوال، صار هطول المطر يُسعدنا، لأنها تتركنا وتتجه إليه، تنسى وجودنا تماماً.. مهما عَلا ضجيجنا، فنتمنى لو أن هناك طريقة للتواصل مع المطر لنطلب منه أو نتوسل إليه ليجعل مواعيد نزوله مع مواعيد دروس اللغة الإنكليزية. بعضنا قال: لنصلّ. وآخر قال: لنغنّ.

مطر مطر يا عالي — اِنـزِل من الجبالِ
في اليوم ساعة وحدة — وخلّصنا من هالوحدة

لكن المَطر كان مزاجياً، فينزل أحياناً كالأنهار المسكوبة من السماء، ويتوقف هطوله أحياناً في منتصف الدرس، فتخرُج السِت فات من صمتها، تلتفت إلينا وتصرخ، كصراخها عند دخولها: هيا يا أغبياء! فيعود شوط رُعبنا، ونعاتِب المَطر في قلوبنا.

مطر مطر يا عاصي
خذلك شَعر مِن راسي
راسي بالمكينة
لا تاكله السمينة

استمر هذا الحال حتى آخر الفصل الدراسي، قبل انتهائه بشهر، حيث

جاءنا بشير بكشف السِر، الذي باحَت به له والدته، فتغير كل شيء إلى عكسه تماماً: انقلب بغضنا لها إلى حُب، رعبنا منها إلى شوق إليها، التغني بالمطر إلى شتائم له، أفاعي خصلات شَعرها إلى أغصان مُزهِرة، بدانتها إلى لدانة حنونة، تمرداتنا إلى طاعات عمياء...

قال بشير: إن السِت فاتن، وقبل أن نُولَد نحن، كان لها طفل وحيد بعمرنا، وذات مرة، خرج يلعب تحت المطر، فانزلق في الطين وجرفته السيول نحو وديان القرية المنحدرة إلى النهر. هَبَّ والده لإنقاذه، ولكنهما اختفيا إلى الأبد.

غيّرنا تسميتها مِن (فات) إلى (فاتِنة)، وأصبحنا نود لو يطول العام، لو تحتَك بنا.. لو نحتضنها ونبكي.

***